الترميز بالحدث الديني في شعر جاسم الصحيّح

أ. د. رحمن غركان
جامعة القادسية – كلية التربية
م. م. وسن محمد موسى
مديرية تربية القادسية

المقدِّمة:

عندما يجنح الشاعر إلى استلهام التراث الديني، في تمثيل تجربته الشعرية، فإنه يعمد إلى استثمار كلّ ما من شأنه أن يثير تفاعلاً نفسياً واجتماعياً عاماً، ويجسّد رمزيةً فاعلةً في ترجمة إحساسهِ، وتقديم رؤاه الفكرية في سياقاتٍ نصيةٍ تستند إلى عمليات التخييل المرجعي، ما نعني منه بالترميز الديني، الذي يتوخى توظيف الرموز الدينية، سواء كانت شخصيات أم أحداث أم حقائق دينية عامة اشتمل عليها الفكر الديني عل امتداد تاريخ الديانات الرسالية المتعددة، إذ أن الشاعر بانتمائه إلى الإنسانية يتجرد من كلِّ قيد عقدي أو انتماء مذهبي، ويطلق لخياله العنان الترحال في رموز تراثه الديني، وما ستنْبِتَ في وجدانهِ من حقائق وأحداث دينية يتمثلها منبر الترميز الديني الذي يتخذ أشكالاً متعددة، من بينها الترميز بالحدث الديني، الذي يتولى البحث دراسته في منجز الشاعر جاسم الصحيح.

الكلمات المفتاحية: (الرمز – الترميز – الحدث الديني – جاسم الصحيح)

The coding of religious events is one of the forms of coding that poets and writers have attracted in general, especially in the modern era, which has witnessed a general trend in the history of re-reading from a religious and political point of view the events and conflicts that occurred. Especially when history repeats itself, and repeats and mentions events with new personalities and modern faces, and historical images of that and events with symbolic dimensions absorb the spirit of the age and its circumstances and cast a shadow on the facts of daily

life. This is because the general religious history is full of articulated events that have been proven to have occurred in religions and divine books and transmitted over the ages, until these religious occasions acquired a symbolic nature, and connotations bearing firmly roots in the collective consciousness, and entered into the formation of religious practices, and the organization of ritual rituals, which are practiced By the owners of religion within the fixed collective rituals. Because of the symbolic nature that many religious occasions included, he became inspiring the feelings of writers and poets in particular, in employing his symbolism, and his semantic energies explode in representing a special poetic experience, nourishing intellectual visions, and psychological crisis situations as a result of the personal and social facts that the poet suffers from. Not far away, we find the poet Jasim is true to track the trail of his predecessors of poetry inspired by heritage, and the representation of emotional experience, of religious events that left the dimensions of symbolic collective thought, and went out of an area of the time, and the limits of the place to the expansion of the code. It has become the property of humanity in every time and place, so every Creator can represent it and summon it to express itself and its psychological and emotional problems. In this research, we try to trace the most important religious occasions that entered the queen of coding in Jassim Sahih's poetry, and based on a complete set of poetic works.

مدخل: تحديد المفاهيم النقدية

أولاً: الرمز

دار استعمال مصطلح الرمز في الخطاب الأدبي ونقده حول مفهومين محددين، ارتبط الأول بالمعنى اللغوي العام للرمز، والذي يعني

الإشارة، أو الإيماء بالشفتين.[١]

أو العلامة الدالة على موضوع ما[٢]، بل (هو كل إشارة أو علامة محسوسة تذكر بشيء غير حاضر، من ذلك: العلم رمز الوطن، الكلب رمز الوفاء، الحمامة البيضاء رمز البراءة، الهلال رمز الإسلام، الصليب رمز المسيحية)[٣]، وهو طريقة في القول عرفها العرب في شعرهم ونثرهم على حدٍّ سواء.

أما المفهوم الآخر للرمز فقد ارتبط بالمعنى المحدد الذي عرف عن مبادئ المذهب الرمزي في أوروبا وفي فرنسا تحديداً، إذ لم يعد الرمز إشارة أو علامة على موضوع ما، إنما أصبح في ظل المدرسة الرمزية أسلوب في التعبير الأدبي يستدعي الإيحاء بالأفكار والمشاعر بدلاً من تقريرها أو وصفها[٤]، وفي جل الأساليب الفنية التي ركز عليها الاشتغال النقدي الحديث، يأتي الرمز مادة أولية في الصياغة والتشكيل الفني، فاتحاً باب الانتقاء للأبداع الواعي ليدخلها في نظام رمزي يتمثل بعملية الترميز[٥] الذي يمثل (الوعي الفردي بكيفية اشتغال الرمز في هذا السياق من العمل اليومي أو ذاك السياق النصي من العمل الإبداعي المدون بالحجر، أو النغم اللون، أو حركات الجسد، أو غيرها من اللغات)[٦]؛ لذلك يعرف الترميز الشعري بأنه ذلك (البناء اللغوي ذاته لا يمكن التفكير به إلا باستخدام أجزاء منه لتركيز إلى أجزاء منه أيضاً)[٧] بما يمنح النص شعريته عبر الترميز الذي يعد عنصراً مهيمناً على العناصر الفنية المشاركة في التعبير. ويختلف الترميز عن الرمز في كون الأخير هو (وعي جماعي يصل

---

[١]- لسان العرب: محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، ج٦: ٢٢٢.

[٢]- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨، ٦٦٩.

[٣]- المعجم الأدبي: جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤، ١٢٣.

[٤]- الرمز والرمزية في الشعر عبد الوهاب البياتي: حسن الخاقاني، أطروحة دكتوراه، جامعة الكوفة، ٢٠١٦.

[٥]- ظ: الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي: حسن الخاقاني، أطروحة دكتوراه، جامعة الكوفة، ٢٠١٦.

[٦]- القرآنية مفهومها موضوعاتها معياريتها أشكالها: رحمن غركان، نيبور، العراق، ط١، ٢٠٢١: ١١٧.

[٧]- استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية: مطاع صفدي، نقلاً عن: الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي: ٢٤.

المشترك المفهوم بدلالة تكاد الذاكرة تتفق على نسبة المعنى المراد تعبيره بها نسبة فهم جماعي).[٨]

ثانياً: الترميز

أما الترميز فهو ثقافة استعمال الرمز(من حيث هو اشتغال ذاتي على الرمز في تجربة من عمل ينزع منجزها إلى معان بعينها ويتبنى مذهباً ما ومنهجاً معيناً)[٩] يدعو إلى التأمل في دلالات المعاني ضمن الإطار الثقافي الخاص، ما دعا شتراوس إلى تعريف الثقافة (بأنها جملة من الأنساق الرمزية)[١٠]، فلا قيمة فعلية للرمز إلا إذا كان مفهوماً لدى مجموعة من الناس، (لأن الرمز لحظة ترميز بين يدي الكتابة الشعرية يعمل على إبداع الغائب الواسع في خلال الحاضر المحدود بما يكون الحاضر ممثلاً عن الغائب فيغذي الشاعر حاضر اللفظ بفائض نزوع عاطفي أو وجداني وبتجربة عقلية في توجيه الدال الحاضر لما يجعله باثاً حيوياً يفيض إيحاءً)[١١]، وبذلك يحدد إرنست كاسيرر الحقل الرمزي بكونه يضم (كلاً من اللغة والفن والعالم الأسطوري والديني، والتي تشترك في إحالتها إلى تمثلات متخيلة، أو فعلية لها دلالاتها المتعددة في ذهن الإنسان)[١٢]، والتي تتحدد عبرها عملية الترميز، بحسب الممهدات والمرجعيات الثقافية والنظم الاجتماعية والعقائد الدينية التي تمثل عنصراً في تركيب الوعي البشري[١٣]، وفي الأدب العربي لا يمكن أن يُنكر ارتباط مسألة استلهام الشعراء المعاصرين للرموز التراثية بمرحلة الحداثة الشعرية، والتي أثارت بدورها جدلاً واسعاً حول مفهوم الأصالة والمعاصرة، لارتباط مفهوم الرمز التراثي بالمنجز الثقافي العام للحضارة العربية.

ثالثاً: الترميز بالحدث الديني

إذا كان الترميز معنيٌّ بثقافة استعمال الرمز وتوظيفه أسلوبياً لترجمة رؤى المبدع، وتمثيل

---

[٨]- القرآنية مفهومها موضوعاتها معياريتها أشكالها: ١١٧.

[٩]- م. ن: ١١٧.

[١٠]- معجم العلوم الإنسانية: جون فرانسوا دورتيه، تر: جورج كتوره، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٩: ٤٤٦.

[١١]- تصوير القرآنية في الأسماء: رحمن غركان، دار ديموزي، دمشق، ط١، ٢٠٢: ٥٢.

[١٢]- من الرمز إلى الرمز الديني: بسام الجمل، مطبعة التسفير الفني، صفاقس، ط١، ٢٠٠٧: ١٦.

[١٣]- معجم الأديان: جون ر. هينليس، تر: هاشم أحمد محمد، المركز القومي للترجمة، ط٢٠١٠، ١.

أفكاره وموقفه من الوجود، فإن الترميز بالحدث الديني على وفق هذه الرؤية يحيل على ثقافة توظيف التراث الديني وآليات استحضار الأحداث والرموز الدينية، إذ (كان التراث الديني في كل العصور، ولدى كل الأمم مصدراً سخياً من مصادر الإلهام الشعري، حيث يستمد منه الشعراء نماذج وموضوعات وصوراً أدبية، والأدب العالمي حافل بالمثير من الأعمال الأدبية العظيمة التي محورها شخصية دينية أو موضوع ديني، أو التي تأثرت بشكل أو بآخر بالتراث الديني)[١٤]، وقد ارتبط مصطلح الترميز بحقول معرفية متعددة ومختلفة (وله جذور فلسفية ولاهوتية أكثر منه أدبية، بل ربما كانت دينية أكثر من أي شيء آخر)[١٥]، فضلاً عن ارتباط الترميز بالأساطير، والقصص الأسطورية، التي عبرت في كثير من موضوعاتها وأحداثها، عن المقدس والمعتقد، و(أن جميع الديانات الشرقية قد وجدت أكمل تعبير عنها في الأسطورة، التي هي حكاية بل سلسلة من حكايات، تقوم بتفسير تلك الحقائق العامة التي تؤثر عن كتب في من يؤمن بها حقائق مثل الأزمان والفصول والغلال ... والموت والقوانين الأخلاقية، وتنتقل هذه الأساطير شفوياً أول الأمر عن طريق الطقوس، ولا تلبث أن تنتقل عن طريق الكلمة المكتوبة)[١٦]، وعن طريق الرموز توطدت علاقة عميقة بين الدين والأسطورة؛ ذلك أن (الرمز الديني يدخل ضمن أطار المقدس المعاش الذي يبني علاقة مع الإله المتعالي وتتبادله الأفراد المنتمية إليه ضمن التجربة الإنسانية، ليكون شبكة من العلاقات والانتماء والترابط بين أعضائها)[١٧]، لذلك فإن دراسة الأحداث الرمزية للأديان المختلفة، تؤدي إلى (استخلاص البنى الأساسية المشتركة بينهم، والأشكال الرئيسة الأولى من كل حياة دينية، والاستفادة من دلالاتها، من خلال التنوع الهائل في الظواهر الدينية ورموزها)[١٨]،

[١٤]- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧: ٧٥.

[١٥]- موسوعة المصطلح النقدي المفرقة – الترميز – الرعوية: ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣، مج: ٤: ٢٦٩.

[١٦]- موسوعة المصطلح النقدي المفارقة – الترميز – الرعوية: ٢٦٩.

[١٧]- من الرمز إلى الرمز الديني: ٢٠.

[١٨]- م. ن: ٢١.

الأمر الذي دعا إلى استلهام الرموز التراثية ولا سيما تلك التي ارتبطت منها بأحداث مصيرية مثل قصة الخلق والطوفان وغيرها من الأحداث، في مختلف أشكال الفنون وأدوات التعبير.

رابعاً: الشاعر جاسم الصحيح

هو جاسم محمد بن أحمد الصحيّح، من مواليد مدينة الإحساء السعودية عام ١٩٦٤[١٩]، شغل مساحة واسعة في الساحة الأدبية العربية وذلك عبر مشاركاته المهرجانية في المناسبات الدينية والوطنية وهو في سعيه إلى تجاوز سمة شاعر المناسبات إلى الكتابة في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية بدلالة سعة منجزه الشعري الذي ربا على ثلاثة مجلدات جمعت أعماله الشعرية التي توزعت بين موضوعات شعرية متنوعة، اكتنزت مرجعيات ثقافية ثرة تمّت عن غزارة ثقافة الشاعر وعمق تجربته الشعرية والمعرفية، (وقد كان الشاعر جاسم الصحيح، صاحب موهبة وطاقة شعرية منذ الصغر، حيث بدأ بحفظ القصائد الشعبية منذ طفولته ... ثم حفظ الشعر الفصيح للمتنبي والكميت وابن عربي وابن أبي الحديد)[٢٠]، حتى تفجرت قريحته الشعرية في محافل التأبين الحسينية التي كان له جمهور يرتادها في مدينته المعروفة بولائها الحسيني، وفي خارج بلاده أيضاً، إذ كانت له مشاركات أدبية مشهودة في العراق، فبات له جمهور واسع فيه وفي ودول أخرى من الوطن العربي، وقد استحث منجزه الشعري المتميز أقلام النقاد والباحثين في الشأن الأدبي، للكتابة عنه ودارسة أدواته الشعرية التي ميزت أداءه الشعري، وأكسبته شهرة طيبة. فكتب عنه الناقد السعودي يحيى عبد الهادي اللطيف كتاباً بعنوان (جاسم الصحيح بين الشاعر والأسطورة) مقدماً فيه قراءة تحليلية لنصوص الشاعر واضعاً إياه في مصاف الأساطير[٢١] حيثما يعن للشاعر أن يضع نفسه.

الترميز بالحدث الديني

الترميز بالأحداث الدينية أحد أشكال الترميز التي استهوت الشعراء والأدباء عامة ولاسيما في العصر الحديث الذي شهد توجهاً عاماً في إعادة قراءة التاريخ من الناحية الدينية والسياسية وما وقع من أحداث وصراعات،

[١٩]- التناص في شعر جاسم الصحيح: ٨.

[٢٠]- التناص في شعر جاسم الصحيح: ٨.

[٢١]- م. ن: ٩.

اعتزم البعض منهم إعادة قراءتها ضمن معطيات الواقع العصري، وإظهارها على السطح من جديد، ولا سيما حينما يُعيد التاريخ نفسه، ويكرر أحداثه بشخوصٍ جديدةٍ ووجوهٍ عصرية، فيتمُّ استدعاء الصور التاريخية، والأحداث ذات الأبعاد الرمزية، التي تستوعب روح العصر، وملابساتهِ وتُلقي بظلالها على وقائع الحياة اليومية؛ ذلك أنّ التاريخ الديني العام، يعجّ بالأحداث المفصلية التي ثبت وقوعها في الديانات والكتب السماوية المأثورة وأخذت تتناقل عبر العصور، حتى اكتسبت تلك الأحداث الدينية طابعاً رمزياً، واحتملت دلالاتٍ راسخةً في الوعي الجمعي، ودخلت في تكوين الممارسات الدينية، والطقوس العبادية المنظمة، التي يمارسها أصحاب الديانة ضمن شعائر جماعية ثابتة. وبسببٍ من الطابع الرمزي الذي اشتملت عليه كثيرٌ من الأحداث الدينية، فقد أصبحت ملهمةً لشعور الأدباء والشعراء خاصة، في توظيف رمزيتها، وتفجير طاقاتها الدلالية في تمثيل التجربة الشعرية الخاصة، وتغذية الرؤى الفكرية، وحالات التأزم النفسي من جراء الوقائع الذاتية والاجتماعية التي يعيشها الشاعر.

وليس ببعيدٍ عن ذلك نجد الشاعر جاسم الصحيح يقتفي أثر أسلافهِ الشعراء في استلهام التراث، وتقليب طبقات التاريخ الديني لاقتناص ما يمثل رواهُ، ويخصّب تجربته الشعورية، من أحداثٍ دينية تركت أبعاداً رمزيةً في الفكر الجمعي، وخرجت من حيز الزمان، وحدود المكان إلى رحاب الرمز، فأصبحت مُلْكاً للإنسانية في كل زمان ومكان، فبإمكان كل مبدعٍ تمثلها واستدعائها في التعبير عن ذاته ولواعجها النفسية والوجدانية.

وفي هذا البحث نحاول تتبع أهم الأحداث الدينية التي دخلت ملكة الترميز في شعر جاسم الصحيح، وذلك اعتماداً على مجموعة الأعمال الشعرية الكاملة الصادرة للشاعر.

أولاً: أحداث خطيئة آدم (ع)

تأتي قصة آدم (ع)، وخروجه من الجنة في مقدمة الأحداث الدينية من حيث التاريخ، وتفاصيل الأحداث التي تعرضت للكثير من المفاهيم والتفسيرات النابعة من مرجعيات مختلفة، وذات أهداف معينة في كل ديانة، من ذلك ما يتعلق بدوافع الخطيئة التي ارتكبها آدم (ع)، وقضية إغواء حواء له، وأكلهما من الشجرة التي حرم الله القرب منها بحسب بيان

القرآن الكريم صراحةً، والمصادر الإسلامية، أما الروايات الموجودة في المصادر غير الإسلامية مثل أسفار التكوين وغيرها التي اشتهرت بالتلاعب والتحريف[٢٢] ببعض الأحداث التي تتعلق بمفاهيم حول المرأة وتحميلها مسؤولية خروج آدم من الجنة، وما يتبع ذلك من تفسيرات أخرى خارج إقرار النص القرآني، لكنها تكاد تكون من ثوابت العقل الجمعي الذي غدا يُقرن المرأة بالخطيئة[٢٣]، وأكثر من ذلك فقد أصبحت المرأة في أدبيات الخطاب الجمعي رمزاً للغواية في كثير من الأحيان، أو أنها معادلاً لفظياً للخطيئة الأولى التي أخرجت آدم، الرجل من نعيم الجنة، وقد ظلّت بعض المعتقدات الخاصة بهذه الحادثة سائدة في الشعور الجمعي، بل تحولت إلى ما يشبه الأساطير أو الخرافات الكامنة في الوعي العام والظاهرة في الخطاب الديني والمعتقد الاجتماعي العام، على الرغم من أنّ النص القرآني قد نسب الاغواء إلى الشيطان، وحمّل آدم مسؤولية خطيئته بقوله تعالى: {وعصى آدم ربه فغوى}[٢٤]، ثم أن خطاب التوبة كان موجهاً لآدم أيضاً دون حواء بقوله تعالى: {فتلقى آدم من ربهِ كلماتٍ فتاب عليه}[٢٥]، وقد تم توظيف أحداث قصة آدم في كثير من الأعمال الأدبية والفنية بناءً على مرجعيات متأثرة أو محاكية للشعور الجمعي في فهم أحداث القصة؛ ذلك أن من الطبيعي أن يتأثر الأديب أو الفنان بالوعي الجمعي أو أن يعمد إلى محاكاته في توظيف الأحداث الدينية، لا سيما ذات الرمزية مثل هذه القصة أو غيرها من القصص الديني التي لم تسلم كغيرها من الأحداث الدينية الرمزية من تداخل الروايات، واضطراب التفسيرات التي يشتط بعضها إلى أبعاد أسطورية أو خرافية تمثل استجابة لمعطيات القضايا الاجتماعية، والأزمات السياسية والثقافية وغيرها.

وبالنسبة للشاعر جاسم الصحيح فقد أخذت هذه الحادثة وتفاصيلها وما تحمله من أبعاد رمزية ركيزة أساسية في تقديم تجربته الشعرية الإبداعية، وطرح رؤاه الفكرية والفلسفية الخاصة حول الذات والوجود

---

[٢٢]- ظ: الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام دراسة مقارنة: أميمة بنت أحمد شاهين الجلاهمة، دار زهراء الشرق، القاهرة، (د. ط)، (د. ت): ١٨١.

[٢٣]- ظ: م. ن: ١٧٨.

[٢٤]- سورة طه: ١٢١.

[٢٥]- سورة البقرة: ٣٧.

والعلاقة بالمرأة والتاريخ الإنساني على الأرض. وذلك ما نجده طاغياً في مصاديق متعددة من منجزِهِ الشعري. فمن ذلك قصيدته بعنوان؛ (نحيب الأبجدية)، وهي قصيدة مطولة من شعر التفعيلة حافلة بالترميز الذي يوظف فيه الشاعر ملامح من أحداث قصة خلق آدم (ع)، والفتنة الأزلية التي أفتتن بها آدم (ع) بها، وأنزلته إلى الأرض، فيقول فيها:

بدايتنا شهوةٌ
أفرغتها السماءُ على الأرض
والأرض عذراء بنتُ ربيعين
تنسابُ في شكل (تفاحة)
والفتنةُ الأَزليةُ والشبقُ المستعِر
ومرّ الزمان
و(تفاحة) البدءِ
عالقةٌ في غصون التقاويم ...
مثقلةٌ بخطايا البشر[٢٦]

إذ يقتحم الشاعر عوالم ضبابية بمفاهيم رمزية حول أبجدية الحياة والبداية البشرية المتفجرة بفعل الشهوة / شهوة الحياة على الأرض التي تنسابُ بشكل تفاحة أشعلتها الرغائب والفتنة الأزليةُ المثقلة بخطايا الإنسان، وآثامهِ.

أما في قصيدة (مقدمة آدم في كتاب حواء) فيتم الترميز بأحداث خطيئة آدم لتمثيل تجربةً ذاتية يعيشها الشاعر في مرامي العشق الذي يراه مئذنةً الروح التي تسمو بالذنب إلى مقام المغفرة والقرب من حقيقة الذات وجوهر الوجود، فيقول فيها:

تنازلي واعشقي فالعشقُ مغفرةٌ
تحنو على الذنب حين الذنبُ يعتذرُ
لا تُطلقي ذئبةَ العصيانِ في عُمري
أخشى على ظبية العفران تنذعرُ
هذي خطيئتُنا الأولى تطاردنا
ما زال يعثرُ في أشباحِها العُمرُ
هل تذكرينَ أفاعي الخلد تُلقمنا
ثديَ الغواية ... والفردوس مُنبهرُ
كيف انطفأنا فما قدري ملاعُبنا
مرآتنا الطينُ أم مرآتنا النهرُ
تفاحة البدء فيما بيننا التحمت
بالشوق... لا تتركيها اليوم تنشطر[٢٧]

إذْ يتم الترميز ببعض التصورات المتعلقة بأحداث خطيئة آدم من جهةِ العلاقة مع المرأة، وجدل الروح بين الغوايةِ والمغفرة التي تمثّل حالة من المراوحة النفسية بين قداسة الروح وبين غواية الطين البشرية، والجدل الأزلي

[٢٦]- الأعمال الشعرية: ٢/٢٨٥.

[٢٧]- الأعمال الشعرية: ٢/٣٥٨- ٣٥٩.

المحموم حولها.

وفي قصيدة أخرى بعنوان (الأنثى ... صدفة هذا الكوكب) تشمل فيها الأنثى بملامح كونية وصفاتٍ أسطورية تمتدّ حدودها خارج نطاق المجرّة، وذلك بحسب بما يقول الشاعر:

وأشدُّ بكفيّ على قوسِ ضلوعي
أخشى أن ينعطف الجسدُ الغضُّ
وتنفرطُ الضلعُ العوجاء أخشى أن يتشظى كوكبُنا الأرضيّ
إذا انشطرت كيوننتنا في الحبّ
فلا (آدم)
يجترحُ المعصيةَ البكر
ولا تفضح سرّ التفاحة (حواء)
يرتعش الأزل المحموم
بعشق الأنسي[٢٨]

إذ يتم الترميز بملامح من أحداث خطيئة آدم (ع) في تمثيل العلاقة مع الأنثى في صورة التحام وجودي انشطرت كينونته بالحب والارتباط الفطري بين الرجل والمرأة، والعلاقة الجدلية الوجودية التي تجمعهما في الحياة.

ثانياً: أحداث الطوفان

لقصة الطوفان رمزيةٌ ثرةٌ في الفكر الديني العام، وقصة الطوفان تندرج ضمن دائرة الترميز الديني في الفكر اليهودي والمسيحي[٢٩]، وحتى في الإسلام لورودها ضمن قصص القرآن الكريم، لذا فإن حادثة الطوفان رمزية عامةً للإنسانية أجمع؛ ذلك أن الطوفان (رمزٌ للدمار الذي يسببه الإنسان لنفسه وللعالم؛ بسبب خطيئته، دمار شخصي ودمار جماعي)[٣٠]، فخطيئة جماعية شاملة فسد بها قلب الإنسان وامتلأ شراً، ففسدت الأرض وامتلأت عنفاً، والطوفان كان نتيجة لهذا الفساد.

وقد كانت أحداث قصة الطوفان ملهمة لكثير من الكتاب والشعراء بسبب من رمزيتها الثرة والعميقة في الفكر الإنساني عامة، وعلى مدى التاريخ الديني بمختلف مراحله، مستثمرين فيه دلالاتٍ ومعان أخرى متجددة تكتنزها أحداث الطوفان، واستدعائها على وفق التجربة الفنية والأدبية الخاصة.

---

[٢٨]- الأعمال الشعرية: ٢/١٣١-١٣٢.

[٢٩]- رمزية القصص الديني في الفكر الكتابي قصة الطوفان أنموذجاً: نزار علي الصغير، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، مج: ٢٣، ع :١، ٢٠١٥: ٣٧٢.

[٣٠]- م. ن: ٣٧٣.

وفي منجز الشاعر جاسم الصحيح نجدُ توظيف أحداث الطوفان يتمثل برمزيةٍ خاصة نابعة من تجربة الشاعر الذاتية، ومحاكية لرؤاه الفكرية، ونظرته الفلسفية للحياة والواقع المعيش. من ذلك ما نطالعه في قصيدة (خرجنا منك ... من لغة التحدي) التي كتبها الشاعر معارضاً فيها معلقة الشاعر عمرو بن كلثوم؛ (ألا هبي ...) بوصفها رمزاً لاستنهاض أمة بأكملها، وذلك بحسب ما قدّم الشاعر لقصيدته التي أخذ يقابل بها بين موقف الفجر الذي بُنيت عليه معلقة ابن كلثوم وبين حالة اليأس التي يعشها الشاعر وتتمثل صورها في واقع الأمة، حيث الحروب الأهلية والانقسامات الداخلية بين كثير من شعوبها، وحالة التيه والضياع التي تبدد الخطوات المستقبلية، وتستنزف الخيرات وغير ذلك من الأزمات والكوارث الطبيعية والبشرية التي يعاني منها كثيرٌ من بقاع العالم اليوم، فيقول الشاعر في ذلك:

هنا ... والحربُ في الأرحام تسري
وتختطف السكينة والسكونا
(ملأنا البرَّ) مثلكَ... غير إنّا
ملأنا البرّ زيتوناً وتينا
أتى الطوفان وابتلع الروابي
ولم نبرحْ نُعدّ له السفينا[٣١]

إذ يتمّ الترميز عن واقع الأمة بأحداث الطوفان الذي أغرقَ الأرض في زمن نبي الله نوح (ع) فيستحضر الشاعر أحداثه برمزيةٍ سافرة من واقع العصر، وحالة الضياع الذي تعيشه الأمة، نتيجة ضعفها وتهاونها وتأخرها في بناء ما يحصن بقاعها ضد الكوارث والأزمات الطبيعية وغير الطبيعية.

في حين يتم الترميز بأحداث الطوفان في شعر جاسم الصحيح للتعبير عن حالة التأزم الذاتي والصراع الداخلي الذي ينتاب الشاعر، مثلما نجد في قصيدة (الهداية الملغومة) التي تُفصح عن لواعج الشاعر الذاتية، وإحساسه بالغربة والضياع، فيقول فيها:

توزعتُ كالموج بين المياه
كأن انتمائي إلى البحر ليس تحدده بوصلة
و(فلك) الحقيقة
ما بلغت بعدُ (جوديها) داخلي ...
أين أرسو؟!
وكلّ الشواطئ قاصرة عن مداي
ومازال (نوح) الحوار
يفكك طوفانه في دمي
موجةً ... موجةً

[٣١]- الأعمال الشعرية: ٣/٣١١.

كي يحط على ربوةٍ من يقين[٣٢]

لتمثل رمزية أحداث الطوفان حالة التيه التي يعيشها الشاعر، ويعلن عبرها انتسابه إلى الريح، حيث انتخبته الجهات، وأهدتهُ مطية المدى، لتتوزع الذات الأسطورية غير الرمزية الطوفان كالموج بين المياه، وتضيع بوصلة الذات التي يعتلج داخلها طوفانٌ عتيد يفكك وجودها موجةً .. موجةً، بحثاً عن ربوة ذات يقين.

وقد يخرج الشاعر من دائرة التأزُّم الذاتي والصراع الداخلي، إلى واقع الحياة العامة وملابساتها وأزماتها في محاولة للخلاص من أسر الواقع المأزوم، إلى رحاب أكثر قدسيةً ورفعةً، مثلما نجد في قصيدة الشاعر بعنوان (يا إله المدى وربّ النواحي) التي تمثل حالة من المناجاة العرفانية للذات المقدسة، ومحاولة للانعتاق من أسر الموقف النفسي والاجتماعي المأزوم، والعروج إلى رحاب القدس العلوية، فيقول:

يا أله المدى ... وهل أنتَ ألّا
لغةٌ لا تُطال بالإفصاحِ
حسبي الصمتُ عالياً يرتقي بيْ
حيثُ بوحي لديك غيرُ مُتاحِ
غمرَ الضوءُ لوحة الكونِ حولي
فتعثرتُ بالظِّلالُ الشحاحِ
ضاعت البوصلاتُ فيكَ، ولكنْ
ما أضاعتكَ نيةُ الملاّحِ
كلّ من نادموكَ في السرُّ قبلي
واحتسوا خمرةَ الكمالِ المتاحِ
أسكرتهم بكارة الكأسِ، لكنْ
أسكرتْني ثمالةُ الأقداحِ[٣٣]

بهذه اللغةِ الصوفية القائمة على رمزياتٍ ثرة يوظفها الشاعر في ترجمة رؤاه وموقفه من واقع الحياة المعاصرة وما تحمله من تناقضات ومفارقات مُوجعة يقول فيها:

تترامى بنا رماحُ الخسارات
وتعلو أسنةَ الأرباحِ
ما ورثنا إلاّ النواح قديماً
واضفنا نشازنا للنواحِ
نحنُ لسنا ألّا مجازَ حروبٍ .. لم نزلْ — من لهيبها — في (انزياح)!
أولُ الغارقين (نوحٌ) وأوهى
ما صنعنا سفينةُ الإصلاح! [٣٤]

فيتم الترميز بحادثة الطوفان وغرق الأرض جميعها، على نحو المفارقة الصادمة التي تجعل

[٣٢]- الأعمال الشعرية: ٦١٥/٢.

[٣٣]- الأعمال الشعرية: ٢٢/٣.

[٣٤]- الأعمال الشعرية: ٢٤/٣.

من نوح (ع) صانع سفينة النجاة أول الغارقين في طوفان العصر، وأزماتهِ الخانقة، بل أن أو هي ما يُقدم اليوم تجاه طوفان الأزمات العارم، هو ما يتم ادعاؤهُ من محاولات الإصلاح المزّيف، ليصبح أوهى ما صُنع أمام هذا الطوفان هو سفينة الإصلاح ذاتها، والتي يتم تبنيها من الجهات المسؤولة، وخداع العامة بها.

ثالثاً: أحداث الإسراء والمعراج

تُعد حادثة الأسراء والمعراج من الحوادث الدينية المعجزة التي تسنت لرسول الله محمد (ص) في مقام العبودية الحقة التي هي أعلى مراتب الأنسان في علاقته بخالقه سبحانه –عزّ وجلّ – والتي من شأنها أن توصل الأنسان إلى أعلى وأبعد نقطة في عالم الملكوت[٣٥]؛ نتيجة لاتصاله بالأسباب الإلهية التي تأخذه في ليلة واحدة في رحلة عبر السموات ليطّلع على أحوال وأسرار الملكوت والجبروت الإلهي. تلك الرحلة النبوية التي أثارت جدلاً واسعاً حول حقيقتها وما هيها وأسرارها وكانت من أبرز معاجز الرسول محمد (ص). وقد تنوعت مصادرها وتعددت من القرآن الكريم والسنة الشريفة حتى تعدت حادثة الأسراء والمعراج إطار الأسانيد والأحاديث المروية، إلى كتب التاريخ والسيرة والمعتقدات الشعبية والنصوص والأدب أيضاً[٣٦]، إذ أن قصص المعراج أشبه ما يكون بملحمةٍ دينية، وقد دخلت في أدب الرحلة أيضاً، فخرجت من دائرة الحديث والسيرة، وصارت لوناً من ألوان الأدب الشعبي والديني)[٣٧]، لما انطوت عليه قصص المعراج خاصة من خصائص أسلوبية، تمثلت بـ (الرمز والتصوير الفني والبناء المعماري من حيث إطار القصة وخطتها العامة)، ذات الأبعاد الرمزية والتفاصيل الخارقة للعادة والتي من شأنها أن تُستلهم في كثيرٍ من مجالات الأدب والتصوف وتحفّز أدوات التّخييل لاستيعاب أحداث الأسراء والمعراج وتوظيف رمزيتها في الأعمال الأدبية والتجارب الصوفية، وقد كانت مادة ثرة في تفاصيل أحداثها نتيجة لاتساع موضوعاتها ونحوها (نمواً سريعاً على مرّ العصور وتدرج هذا النحو تدرجاً طبيعياً من أي في القرآن الكريم إلى حديث في السنة ذي أسانيد متعددة إلى قصة في السيرة ... ثم إلى رؤيا رمزية عند المتصوفة، كالبسطامي وابن

[٣٥]– قصص الأسراء والمعراج: ماجد الزبيدي، شبكة الجوادين العامة، ط١، ذوي القربى، ١٤٢٦: ٦.

[٣٦]– المعراج والرمز الصوفي: نذير العظمة، دار الباحث، (د. ط)، (د. ت): ١٣.

[٣٧]– المعراج والرمز الصوفي: ١٥.

عربي والسنائي وغيرهم، ثم أخذ يتلبسُ أشكالاً أدبية وأطراً شعبية كما في رسالة الغفران للمعري[٣٨]، وحتى في العصر الحديث فقد ظلّ لقصة المعراج أثراً واضحاً في أعمال أدبية وشعرية مثمرة مثل ثورة الجحيم للزهاوي،

وقد استثمر كثيرٌ من الشعراء رمزية المعراج خاصةً في تمثيل لواعج النفس المأزومة وتوقها إلى الانعتاق من أسر الجسد، وحدوده المادية إلى رحاب أكثر قدسيةً وسمواً، فضلاً عن توظيف رمزية المعراج في تمثيل الموقف من الوقائع الاجتماعية والسياسية والأحداث الوطنية والقومية وغيرها.

وفي منجز الشاعر جاسم الصحيح، نلحظُ حضوراً لافتاً لإحداث الأسراء والمعراج، والترميز ببعض الوقائع والتفاصيل الخاصة بالحادثة الدينية، سواءٌ على الصعيد والروحي، أم على الصعيد القومي والسياسي وذلك ما نحاول تتبع مصاديقهُ في هذا المحور. ففي قصيدة الشاعر بعنوان (الانتفاضة قبلتنا والأمامُ الحَجَر) المهداة إلى روح الطفل الفلسطيني محمد الدرة الذي قُتل جراء الهجوم الاسرائيلي في مطلع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م، نجد القصيدة حافلةً بأحداث الأسراء وتفاصيل المعراج النبوي إلى عالم الملكوت، والانعتاق بالروح إلى عالم القدس الإلهي، الذي حرّر روح الطفل الفلسطيني من أسر الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية، وترميزه للحياة هناك وسحقهِ للأطفال والصغار قبل الكبار في وحشية غادرة واستنزافٍ كامل لروح الأنسان الفلسطيني قبل جسده فيقول فيها:

براقٌ من الزغردات
يمدُّ جناحَه ملءَ الشفاه
ملا تبتئس يا محمّد
معراجُك الآن
يمتدُّ عبر الفضاء الجديدي
حيث الزغاريد عالمةٌ بالمجرات
فاخلع ضلوعك
درعاً على جسد (القدس)
وأعرج إلى قمة الانعتاق
وحين تهم (الصواريخ)
صوب صلاتك ...
إنّ الزناد السماوي
لا يخطئ المستحيل
وهذى (الصواريخ)
لا تفهم الشوق كيف يقاتل
لا تستطيع المِلامةَ

[٣٨]- م. ن: ٩.

في الروح حيثُ يجوسُ (البراق)![٣٩]

فيتم استدعاء شخصية محمد الرسول (ص) العارجة في مدارج الملكوت بوصفها معادلاً لفظياً لروح الطفل محمد الدرة، الصاعدة من بين أزيز الصواريخ ورنين القنابل الإسرائيلية، وذلك ضمن استحضار تفاصيل أحداث الأسراء بالبراق التي حملت محمد / النبي (ص) إلى أرض القدس، حيث محمد / الطفل خائفٌ يرتجف لا سدّ له دون رصاص العدو ونيران البنادق، فبين هذهِ الأثناء تعرج روح محمد / الطفل عبر الفضاء الحديدي من الرصاص والصواريخ، ليعرج إلى قمة الانعتاق الروحي، نحو السموات العُلا شوقاً إلى لقاء بارئها حيث استقرّ قلب محمد / النبي وتثبّت فوادُه بما رأى من آيات ربه في معراجه الحقيقي في طبقات السموات، ولعل الشاعر هنا يستنهض فينا روح الطفل المقاوم الرافض لواقع الذلّ والتنازلات التي أفقدت الشعوب كثيراً من أراضيها وضيعت الأكثر من حقوقها.

أما في قصيدة الشاعر بعنوان (ما أذاعته الريح عن خيمة صفوان) التي كتبها في حضرة العراق الأليم، بحسب ما يقدم الشاعر لقصيدته، فإنه يستحضر ملامح من أحداث الأسراء والمعراج للتعبير عن مكانة العراق وقيمته التاريخية والحضارية فيقول:

كلما حاولتُ أنْ أكتبني شعراً شبيهاً بالعراقْ
لم أجد ما بين قمصان (التشابيه)
قميصاً يسع التاريخ ...
لم ألق (مجازاً) عابر الأزمان ...
لم ألق (جناساً) توأماً للحزن ...
لم ألق (طباق)
ما أنا أنصِفُ بالمعنى على المبنى
لكي أسترَ عورات السياقْ!
آهِ ... يا أشجى (عراق)!
يا شيخ البدايات ويا عكّازة الآزال ..[٤٠]

ثم يعرّج الشاعر على بيان قدرة هذا الوطن على الصبر والتحدي والصمود أمام أنواع النكبات والتسامي في أصعب الأزمات، وذلك عبر رمزية الأسراء والمعراج، فيقول: إذا كنتَ تفحّمت من الصبر
فهذا الزمن الحاقد
لا ذاكرةَ فيه
لكي يذكرَ معراجَك في قبةِ هذا الكون
يا صنو (البراق)
أيها المكتظ بالنار
عهدناك – ومن سبعةِ آلاف جحيم –

[٣٩]– الأعمال الشعرية: ٢/١٧٣.

[٤٠]– الأعمال الشعرية: ٢/٢٣٧.

خامةً تدخلُ مصفاةَ مآسيك
تُزيلُ الخبثَ الآسن
عن جوهرةٌ الروحِ وتأبى الاحتراق[٤١]

إذْ يتمّ الترميز بحادثة الأسراء والمعراج في بيان رفعة العراق وسموه عمن حوله من بلدان، والتذكير بتاريخه المجيد. ومكانته الحضارية التي أهلته للعروج في قبة الكون، والتسامي على نار الأحقاد التي تحاصره من مختلف الجهات.

الخاتمة

يأتي موضوع الترميز بالحدث الديني عند الشاعر جاسم الصحيح واحداً من أشكال التوظيف الرمزي، الذي يُفصح عن سعة المرجعيات الثقافية والفكرية للشاعر مثلما يُفصح عن صدق التجربة الشعورية التي يتمثلها الشاعر في رموزه المختارة، والأحداث الدينية التي ارتكزت في وعي الشاعر، وكانت مصداقاً لرؤاه الفكرية وترجمة لإحساسه وانفعالاته الوجدانية. فقد جاء الترميز بأحداث قصة خطيئة آدم –ع– تمثّلاً لرؤيته تجاه الحياة والوجود الإنساني عامةً فضلاً عن إحساسه نحو المرأة وطبيعية علاقتهِ بها اجتماعياً وإنسانياً، بينما يأتي الترميز بأحداث الطوفان تلبيةً لحالة الصراع الداخلي والتأزم النفسي الذي يعيشه الشاعر ويتمثل صوره برموز الحادثة الدينية هذه في حين بكون الترميز بأحداث المعراج تعبيراً عن حالة التسامي الفكري ومحاولة الانعتاق الروحي الذي يتوقه الشاعر للخلاص من سلبيات ما يعانيه الشاعر في وعيهِ الذاتي وفي مواقفهِ الوطنية والقومية، وغير ذلك من مصاديق الترميز بالحدث الديني عند الشاعر الصحيح مما لا يسع المجال لبحثها.

مصادر البحث

– القرآن الكريم

١– الأعمال الشعرية: جاسم الصحيح، أطياف للنشر والتوزيع، السعودية، القطيف، ٢٠١٨.

٢– الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي: حسن الخاقاني، أطروحة دكتوراه، جامعة الكوفة، ٢٠١٦.

٣– تصوير القرآنية في الأسماء: رحمن غركان، دار ديموزي، دمشق، ط١، ٢٠٢٠.

٤– التناص في شعر جاسم الصحيح: سها القريشى، أطروحة دكتوراه، جامعة كربلاء

٥– الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام دارسة مقارنة، أميمة بنت أحمد

[٤١]– الأعمال الشعرية: ٢/٢٣٩.

شاهين الجلاهمة، زهراء الشرق، القاهرة (د. ت)(د. ط).

٦- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: علي عشرى زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧.

٧- القرآنية في مفهومها، موضوعاتها، معياريتها، أشكالها: رحمن غركان.

٨- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨.

٩- قصص الأسراء والمعراج: ماجد الزبيدي، شبكة الجوادين العامة

١٠- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، دار المعارف د .ط، ١٩٧٧.

١١- معجم الأديان: جون هينلس، تر: أحمد هاشم محمد، المركز القومي للترجمة، ظ١٠، ٢٠١٠.

١٢- المعجم الأدبي: جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤.

١٣- معجم العلوم الإنسانية: جون فرانسوا، تر: جورج كتورة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٩.

١٤- موسوعة المصطلح النقدي — المفارقة - الترميز- الرعوية، تر: عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣، مج٤.

١٥- المعراج والرمز الصوفي: نذير العظمة، دار الباحث (د. ط) ، (د . ت)

البحوث المنشورة:

- رمزية القصص الديني في الفكر الكتابي قصة الطوفان أنموذجاً، نزار على الصغير، مجلة الكوفة الإسلامية للدراسات الإسلامية، مج ٢٣، ع: ا، ٢٠١٥.